الحلقة (٨)

❖ معايير الأخلاق:

ما الموازيين التي توزن بها الأخلاق فيعرف بها الحسن من السيئ، بحسب ما يؤمن به المجتمع؟

نجد أن هذه المعايير تختلف من مجتمعات إلى أخرى، بالنسبة للإسلام كما أشرت فيما مضى **المعيار المطلق** والأساس الذي تصدر عنه المعايير الأخرى هو **الوحي**، فالوحي هو الهادي وهو المبيّن للحسن والقبيح.

هناك أخلاق حُدِدت وبُيِنت ووضّح حسنها من سيئها، وهناك أمور تعرف بالنظر والاجتهاد في شرع الله سبحانه وتعالى، فيتوصل من خلال ذلك إلى معرفة الحسن والسيئ،

وهذه مجال الاختلاف فيها وارد، لذلك هناك ما هو مستقبح مثلا **بالطبع**، ومستحسن به، فالطبع قد ينفر من شيء وقد يقبله ولكن لا يترتب على هذا الشيء تحريم وتحليل.

ومثالنا في ذلك أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ذات يوم قُدّم له طعام فيه ضب، فكفّ ولم يأكل منه فسأله خالد بن الوليد رضي الله عنه: أحرام هو يا رسول الله؟ قال: (لا، ولكنه ليس بأرض قومي فأجد نفسي تعافه)، فهنا أحال المصطفى عليه الصلاة والسلام على الطبع، فبالتالي ما كان الطبع ينفر منه ويستقبحه، ليس معناه أنه حرام.

وهناك إذن كان النبي صلى الله عليه وسلم يبين لنا أن الجبلة تنفر من شيء وتقبل على شيء، وأن الناس في ذلك متفاوتون ..

ومن العوامل المؤثرة في هذا الجانب: الثقافة **ثقافة المجتمع**، ولذا نجد مجتمعات يأكلون أشياء مثلا هي ليست من المحرمات في الشرع، لكن النفوس قد تستقبحه وتنفر منه، وهناك مجتمعات أخرى تستحسنه، الطبع إذا محسّن ومقبّح، ولكن لا يترتب على تحسينه وتقبيحه أحكام، والعقل يستنبط من الشرع فيبيّن حسنا وقبيحا، ولكن يظل اجتهاد، وقد يختلف معه غيره بناء على أدلة وتعليل تثبت عند الآخر، ثم لدينا الفطرة مقياس للخير في المجال الخلقي وللشر، فالناس جميعا يحبون الصدق، قد لا يصدقون في ممارستهم وفي فعلهم، ولكنهم يحبون الصدق، ويكرهون أن يكذب إنسان عليهم، ويحبون أن يصدق الناس معهم، ولكنهم قد يكذبون وقد لا يمارسون الصدق، ولكنهم يحبون الصدق ويرون فيه قيمة عالية، فمهما شرّقت وغرّبت تجد الناس يجدون أن الصدق قيمة طيبة، وأن المحافظة على العهد مثلا قيمة طيبة، وأن الكذب قيمة مذمومة، وأن الغدر خلق مذموم، وهكذا وأن الجبن خلق مذموم، وأن الشجاعة خلق ممدوح، وهكذا.

فإذن هناك أمور مصدرها **الفطرة**، فطرة الناس تقبل على شيء وتنفر من شيء فكأنما كانت مقياس، وقد جاء الدين معززا لهذا الجانب ومراعيا لفطرة البشر.

فزكّى الأخلاقيات التي فيها منفعة للناس ومصلحة، وذم الأخلاق التي فيها مضرّة، وبيّن ما كان مطلقا في كل الحالات وما كان نسبيا، ولكنه في هذه النسبية يخرج عن الصفة الأساسية، فمثلا الصدق صفة مطلقة، لكن لو فكرت فيها لوجدت أن الصدق في بعض المواطن ليس نافعا بل مضر، ولذا سمّي باسم غير اسمه عبّر عن هذه الصفة، فمثلا لو قلنا أن إنسانا عسكريا لديه العلم بالمواقع الحربية في مجتمعه أو في بلده، ثم صدق العدو القول عن هذه المواقع، يعني أعطاهم المعلومات الحقيقية الصادقة، لا يسمى فعله هذا صدقا، وإنما يسمى خيانة، فإذن الصدق إذا نظرنا إليه من هذه الجهة تدخله النسبية، وبالتالي يعطى اسما آخر يخرجه عن الصدق، حتى لا يكون الصدق مذموما، يعطى اسما آخر هو الخيانة.

وهكذا في الأخلاق التي مظهرها الإطلاق، هي إذا فكّرنا فيها من حيث حقيقتها وجوهرها وجدنا أنها قد تكون نسبية، وبالتالي يُخرج هذا الذي يجعلها نسبية حتى لا تكون بهذا الشكل حتى تكون مطلقة، يعطى الجانب السلبي اسما سلبيا، فالصدق مع العدو وإعطائه معلومات عن المجتمع فيه خيانة ليست صدقا، لكن الصدق مع العدو في العهد أمر مطلوب،

ولذلك سمّي باسم آخر أيضا سمّي الوفاء بالعهد.

<u>إذن هذه المعايير أو المقاييس في المجتمع الإسلامي **مردّها وأساسها الوحي**، وكما قلت هناك **مقاييس أخرى تتفرع** عليه:</u>

١- **كالعقل الذي يهتدي بالوحي** في استنباط الحسن والقبيح.

٢- و **كالفطرة** التي تميل إلى الحسن وتنفر من القبيح.

٣- و **كالعوائد الاجتماعية الطيبة الصالحة** .

ولذلك الإسلام حينما جاء لم ينفِ جميع عوائد العرب وإنما ما كان منها طيّبا أبقاه، وما كان منها مذموما حرّمه وألغاه.

فإذن ليست كل عوائد المجتمع مذمومة، وإنما ما تطابق مع شرع الله وتوافق مع الحق فهو ممدوح، ويصبح من الناحية الاجتماعية كأنما هو مقياس، والأصل كما قلت هو الشرع.

<u>كما قلنا في العقل نقول في المجتمع</u>: أن جعل أصل هذه العادة مقياسا هو موافقتها لشرع الله، ولو خالفته لم تكن مقياسا ولم يعتدَّ بها، أما في المجتمعات الأخرى فالمقاييس الأخلاقية قد تختلف بحسب الوجهات، لأن الفلاسفة اختلفوا اختلافا كثيرا، فمثلا منهم من ردّ الأخلاق إلى الواجب، ومنهم من ردّه إلى اللذة، ومنهم من ردّه إلى غير ذلك.

<u>**أما بالنسبة لمصادر الإلزام، ما الذي يُلزم الإنسان أن يعمل بالأخلاق الحسنة ويبتعد عن الأخلاق القبيحة؟**</u>

الأصل في المجتمع الإسلامي أن إيمانه بالله وبرسوله هو الملزم له بهذا التحلّي بالأخلاق الفاضلة .

لأن الإيمان لا يكمل إلا بها، (**الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**)، فالإيمان شعبه متعددة كلها عبارة عن أخلاقيات يمارسها الإنسان ابتغاء رضوان الله سبحانه و تعالى.

ومصدر الإلزام الأساس هو: الإيمان بالله وطلب مرضاته، ولكن نجد إذا تأملنا الواقع أن هناك مصادر أخرى للإلزام تدفع المرء للعمل بشيء، وتحجبه عن العمل بشيء آخر، قد يكون مباحاً ولكنه يرفضه ولا يعمل به، ما الذي منعه عن العمل به، قد يكون هذا المانع هو ما توصل إليه بعقله مما رأى له فيه مصلحة،

إذن فالمصلحة أو المنفعة قد تكون سبباً للفعل أو الترك، فما رأى الإنسان له فيه مصلحة أقبل عليه وما كان لا مصلحة له فيه تركه وأهمله، ومن هنا تفاوت الناس، فبقدر التزامهم بشرع الله يكون تحكيمه في منافعهم، وبقدر ضعف التزامهم بشرع الله تكون المنافع والأهواء هي الحاكمة لتخلقهم، وقد يكون الشرع مانعاً من هذا الخلق ونرى أن الإنسان يمارسه، لأنه سبق إليه في نظره أنه أنفع له، طبعاً أنفع دنيوياً، أو سبق إليه قوة شهوته، أو سبق إليه أمر آخر، كرغبته في الجاه أو المنزلة عند الناس ونحو ذلك.

وقد يكون الملزم للإنسان بالأخلاق ليس إيمانه، وليس المصلحة المادية أو المعنوية كالجاه، بل **قد يكون الخوف من سلطة المجتمع**.

فيكون المجتمع هنا هو الرادع، والملزم بالأخلاق، وقد يكون خوفه من **السلطة القانونية الضابطة** والموقعة للجزاء حينما يخالف.

فإذن تتعدد مصادر الإلزام بالخلق: تتعدد حسب تأثيرها في الفعل أو الترك.

والشريعة قد جعلت من هذه المصادر للإلزام، أو وظفت هذه المصادر توظيفاً صحيحاً فجعلتها دافعة وضابطة،

فالسلطة مأمورة بأن تدفع الشر، وأن تجلب الخير بما يرهب الذي يخضع لنفسه وهواه، تضبط سلوك الناس، ولذلك قال رسول الله: (**إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن**)، والمجتمع مأمور بأن يكون سلطة رقابية على الأخلاق السيئة والنوازع الفاسدة.

فشبه النبي صلى الله عليه وسلم المجتمع بأناس استهموا على سفينة، مجموعة ركبوا في سفينة فاقترعوا أيهم يكون في الأسفل وأيهم يكون في الأعلى، فكان نصيب البعض في أعلى السفينة ونصيب البعض في أسفل السفينة، وكان الذين في الأسفل إذا أرادوا أن يستقوا الماء، يمرون على من فوقهم فقالوا: لو أننا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، قد يكون مثلا المراد مصلحة ولكنها لم توافق القانون

الصحيح، هم لا يريدون أن يؤذوا الذين من فوقهم، فيفكرون أن يخرقوا في أسفل السفينة خرقاً ليأخذوا الماء مباشرة، لكن لو فعلوا هذا لكان سبباً لهلاك الجميع، فقال: لو أنهم (معنى الحديث) لو تركوهم لهلكوا وهلكوا جميعا، ولو أخذوا على أيديهم لنجوا ونجوا جميعاً.

فهذا فيه أيضاً دور المجتمع في كف السفهاء والجهلاء، الذين أتاهم السفه من ناحية بغيهم أو من ناحية جهلهم، كفهم حتى لا يكونوا مصدر أذى بتصرفاتهم للمجتمع، وكذلك عن دور السلطة باعتبار أن السلطة أعلى المجتمع في حماية الكل، لأن الكل في سفينة واحدة، في حمايتهم من التصرفات الخلقة غير المسئولة، إما بسبب الجهل أو بسبب الظلم والعدوان.

والله عز وجل قد قال عن المجتمع: { وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ }،

ومن تعاون المجتمع على البر والتقوى: تآمره بالمعروف وتناهيه عن المنكر، وتناصحه في ذات الله عز وجل،

واستنكاره للشذوذ والتصرفات السيئة.

فالمجتمع إذن مصدر إلزام يوظفه الشرع توظيفاً صحيحاً.

والعقل مصدر إلزام يوظفه الشرع توظيفاً صحيحاً يهدي به إلى الرشد إلى الخير.

والفطرة أو الوعي والمعدن مصدر إلزام يوجهه الشرع أو يربيه ويزكيه حتى يكون ضابطاً لسلوك صاحبه بواسطة المجاهدة والمراقبة والاستمرار في العمل الصالح.

ولذلك كانت التزكية تزكية النفوس وتطهيرها من أعظم الوسائل لإصلاح الأفراد والمجتمعات، فلا عجب فالتزكية إحدى وظائف النبوة.

قال تعالى: { هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ }.

بين سبحانه وتعالى أن :

المهمة الأولى مهمة إقراء وإبلاغ،

المهمة الثانية مهمة تزكية وتربية وإنهاض إلى الله عز وجل،

المهمة الثالثة مهمة التعليم تعليم الحكمة تعليم الكتاب، فكانت التزكية أحد الأمور الأساسية التي تؤدي إلى الإصلاح والخير في حياة الأفراد والجماعات.

بناء على ما سبق، تتضح **أهمية الأخلاق في الحياة الاجتماعية** وأثرها العظيم، سواء في الحياة الفردية أو الاجتماعية، ويمكن أن نلحظ ذلك بالنسبة للشرع من عدة جوانب:

١-فالله عز وجل أعطى الأخلاق أهمية عظيمة، **نجد ذلك في وصف الرسول عليه الصلاة والسلام بالمثل الأعلى في الخلق** { وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ }، ولما سئلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن

خلق النبي صلى الله عليه وسلم قالت: "كان خلقه القرآن" فالنبي صلى الله عليه وسلم هو الموطن والمجسد للأخلاق الواردة في القرآن الكريم، وطريق الاقتداء به بينه الله عزوجل في قوله سبحانه: { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} فلكي يتأسى الإنسان برسول الله في خلقه .

هناك عوامل ثلاثة أساسية جامعة لهذا التأسي:

أولها: الإخلاص والتجرد لله سبحانه وتعالى: { لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ}،

ثانيها: تقديم الآخرة على الدنيا: { وَالْيَوْمَ الْآخِرَ }.

وثالثها: الإكثار من ذكر الله: { وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا }.

لأن الإكثار من ذكر الله جلاء للقلوب وطهارة لها، قال صلى الله عليه وسلم (**إن الإيمان ليخلق في صدر أحدكم كما يخلق الثوب، جددوا إيمانكم قولوا: لا إله إلا الله**).

فبيّن النبي عليه الصلاة والسلام أن الذكر هو المجدد للإيمان، فمن كان أكثر ذكرا لله عز وجل كان أكثر تجديدا لإيمانه، قال عليه الصلاة والسلام : (**سبق المفردون**) قيل وما المفردون يا رسول الله؟ قال: (**الذاكرين الله كثيرا والذاكرات**) هذا هو جوهر الخلق النبوي.

الإخلاص لله سبحانه وتعالى الذي يسري في الأقوال والأفعال وتقوم عليه وتتأسس عليه، وتقديم الآخرة على الدنيا، وتقديم ما يحبه الله ويرضاه على غيره، والإكثار من ذكر الله.

٢- المسألة الثانية الذي يدل على أهمية الأخلاق في الإسلام

أنه قد أشير إليها على أنها علة مجيء الرسالة النبوية قال عليه الصلاة والسلام (**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**) لأن الأخلاق في حقيقتها علاقة مع الله عز وجل وعلاقة مع الخلق فلا بد أن يتخلق الإنسان بما يدنيه من الله عز وجل.

٣- ومما يدل على مكانتها **أنها جاءت كالتعريف بالدين:** (**الدين حسن الخلق**) أن التعريف الواسع الذي بيناه للخلق أن جوهرها سيكون موافقا للحق من حيث هي صفات ممدوحة أو معدن ممدوح، ومن حيث أنها صفات استقرت في النفس واستقاها، فإذا كانت صفات راقية فتصبح صفته صفة الحسن والجمال.